

حوار في الهاجس العراقي مع هوبير فيدرين

## على العرب أن يصنعوا حداثتهم بأنفسهم، والديمقراطية لا تفرض فرضاً

قد يكون من النادر أن تحدث رجلاً دبلوماسياً في ما وراء الحادث السياسي. فأنت على يقين من أن العمل الدبلوماسي هو استغراق في اللحظة واعمالها ووظائفها، وفي ما يترتب عليها من آثار. لكن الحال غير ذلك مع وزير خارجية فرنسا الأسبق هوبير فيدرين. فإنك، وانت تحاوره، لست فقط أمام شخصية دبلوماسية أرخت لحقبة هي من ابرز وأدق ما مرت به فرنسا حين تلاقى اليمين واليسار في تحالف فرضته الضرورات سحابة خمس سنوات كاملة، وإنما أيضاً بإزاء مفكر استراتيجي يقرأ المستقبل.. لقد كان فيدرين صلة الوصل، والعروة الوثقى بين شيراك وجوسبان، فكان أن احتل مقام رجل الدولة بامتياز استثنائي.

في هذا الحوار مع هوبير فيدرين دخلنا وإياه في ما وراء اللحظة السياسية الدولية. من فرنسا إلى أوروبا إلى الشرق الأوسط، وكان العراق ومستقبله وهمومه وهواجسه في قلب الحوار، وقد جاءت اجابات محدثنا مقتضبة لكن مكثفة وممتلئة بالدلالات.

غ.م

مدارات غربية: سيد فيدرين، حتى قبل انطلاق العدوان على العراق، أبديت معارضتك لأكة الحرب تلك. ولم يندرج موقفك في اطار يوتوبيا سلمية، بل على العكس، في رؤية شاملة: دبلوماسية جيوسراتيجية وحضارية في آن. لقد ناديت بمزيد من الشدة والمراقبة والمتابعة الزمنية ازاء العراق، وأيضاً إلى تعزيز الشراكة والمسؤولية بين الدول. من أجل الاحترام والتفاهم بين الشعوب والأخذ في الحسبان حاجتها إلى الكرامة والسلام والازدهار. سيد فيدرين كيف تقوم هذه الرؤية من زاوية الأحداث التي جرت منذ ذلك الحين في الشرق الأوسط؟

هوبير فيدرين: علينا ألا ننسى انه كان هناك مشكلة عراقية جدية بقيت من دون حل. وبأن العقوبات باتت غير ذات مردود، ولم يكن أمام الشعب العراقي أي أفق. في هذه الأثناء لم تكن الحرب الأميركية مبررة، ولم يكن في مقدور أحد أن يمنعها. ومنذ ذلك الحين لم تجر أمور العالم على نحو حسن. يجب الآن النظر في ما إذا كان بالامكان أن يخرج شيء حسن من هذا الشر بالنسبة للعراقيين.

حاوره في باريس:

د. محمد نعمة

نقله عن الفرنسية:

د. عفيف عثمان

مدارات غربية: حتى قبل ما سمي بـ حرب «دمقرطة» العراق، أقيمت تمييزاً بين ديمقراطية مفروضة وديمقراطية مأمولة، وبين ديمقراطية مُصادرة وديمقراطية بازغة. لنقل، بين ديمقراطية جاهزة (معدة للإرتداء) ومسار ديمقراطي. وقد شددت على المنافع السياسية والاجتماعية للمسار الديمقراطي. بعد سنة من «الدمقرطة» المسلحة للعراق، أي لائحة بالنتائج تستطيع تقديمها؟

هوبير فيدرين: لقد شددت دائماً على أن الديمقراطية لم تكن يوماً ولا في أي مكان بنت لحظتها بل إنها كانت مساراً تاريخياً، ثم لم يؤد فرضها من الخارج يوماً إلى النجاح. وفي كل الأحوال ففي حالة العراق، لم تكن «الدمقرطة» سوى ذريعة، أتت متأخرة بالنسبة للأميركيين. مشكلة الديمقراطية في العراق هي الآن نصب أعيننا: كيف ينبغي الانتقال من الديكتاتورية إلى نظام ديمقراطي لا تقوم فيه الأكثرية بقمع الأقليات، وحيث تستطيع المجموعات تحكيم خلافاتها من دون عنف.

مدارات غربية: في رأيك، سيد فيدرين، ماذا ربح العراقيون وشعوب الشرق الاوسط، وماذا خسروا من هذا «التدخل الجراحي» في قلب منطقتهم؟

هوبير فيدرين: لم تربح شعوب الشرق الأوسط شيئاً ولم تخسر ايضاً. ربح العراقيون التخلص من ديكتاتور مقابل ثمن الاحتلال والحرمان من السيادة التي نأمل أن تكون مؤقتة.

مدارات غربية: سجل ستانلي هوقمان تساؤلين ناقبين من تحليلك لحال العالم الراهنة: الاول عما اذا كان يمكن لكل الموضوعات العالمية المهمة الآن أن تدخل تحت عباءة القوة المعادية للارهاب؟ والثاني عما اذا كان ثمة احتمال ان يبادر القادرون إلى مهمتهم الشاقة كأن يعالجوا الأمور بالوسائل العسكرية؟ نستنتج اليوم كما لو أن ارادة «إرهاب الإرهابيين» لم تصطدم بمقاومة كبيرة قبل أن تحتل النفوس. مع أن الفعل الارهابي لم يجر تحديده؟ لقد حُشدت كل الجهود والطاقات الاجتماعية - السياسية والحربية والأخلاقية في وجه العدو، في حين أن هذا العدو لا يخضع على نحو غريب لأي تعريف. لماذا هذا التفارق غير المسبوق بين الفعل وبين التحديد؟

هوبير فيدرين: منذ كانون الثاني (يناير) 2002، حذرت من الفكر التبسيطي الذي يحيل كل مشاكل العالم إلى مكافحة الارهاب وحدها، من دون تحليل سياسي للأسباب، وهذا لا يتقدم بنا كثيراً خصوصاً حين يُرى إلى الارهاب بما

❖ لم تكن الديمقراطية يوماً بنت لحظتها، ولم يؤد فرضها من الخارج إلى النجاح، وفي حالة العراق لم تكن «الدمقرطة» إلا ذريعة أميركية متأخرة.

هو قضية تقنية وليس سياسية. وقد نجحت الإدارة الأميركية الحالية، الايديولوجية على نحو استثنائي، في أن تفرض جزئياً على العالم شعارات حول هذه النقطة، بفضل هذا التخطيط.

ولقد استفادت بلدان كثيرة من هذه المسألة. حتى لقد بدا السؤال الوحيد على الشكل التالي:

من يمكن له أن يكون مع الارهاب؟ ولكن هذا الأمر سرعان ما أخذ يتآكل. مدارات غربية: يجب الاقرار بأن العالم الحالي هو سجين المفارقة التراجيدية للدبلوماسية الغربية في الحقبة ما بعد السوفياتية. كيف وصلنا إلى هنا؟ إلى متى سيبقى التعامل والفهم والتحديد في حال من المفارقة والتباين. وإلى أي حد ستبقى الرؤية الدبلوماسية الغربية ضمن اشكالية علائقية كبرى لا تستثنى أحداً؟

هوبير فيدرين: يجب عدم الخلط بين ادارة بوش، والدبلوماسية الغربية في شكل عام التمايزات الأساسية ليست هنا: اعتقد الأوروبيون (وايضاً العرب وشعوب اخرى) بعد نهاية الحرب الباردة أن العالم سيصبح مجموعة دولية ينتظمها القانون. والجلي، ان الحال ليست كذلك حتى الآن.

#### شطط الأميركيين

مدارات غربية: كي نعود إلى العراق، انها المرة الأولى في التاريخ المعاصر، التي تدمر فيها قوة دولية دولة اقليمية من دون قرار دولي. والأسوأ، أن هذه القوة تطارد المعادي لها، وتُجرّم المتردد، وترهب المتحفظ. انها تريد أن تجعل من احتلالها قيمة دولية يجب أن تحترم، و«إيتيقا ديبلوماسية» يجب اعتمادها كمثال. ما العمل أمام هذه القوة؟ أو بالأحرى ما العمل في وجه هذه القوة الفائقة؟

هوبير فيدرين: عليك ألا تنسى أيضاً، ان صدام حسين احتل الكويت وقرر انالتها! ما العمل الآن في وجه القوة الفائقة الأميركية؟ ينبغي قبل كل شيء عدم الشكوى. بل من الواجب تحمل المسؤولية، وبناء موازين مقابلة وأقطاب أخرى. وقد ينتهي الأميركيون أيضاً، على وجه الاحتمال، إلى تصحيح شططهم. علماء أن البعض منهم قلق من انحرافهم النيو-امبريالي.

مدارات غربية: يخفي هذا السؤال الثاقب والمحير على نحو درامي «ما العمل؟» إحداه بلبله شاملة ازاء عالمنا الذي يجب حمايته واحترامه. فسؤال «ما العمل؟»

♦ اعتقد الأوروبيون، ومعهم العرب، ان العالم بعد الحرب الباردة سوف يصبح مجموعة ينتظمها القانون، لكن من الجلي ان الحال هي ليست كذلك حتى الآن.

يُحتمل انه يتجنب سؤال «من يستطيع أن يعمل؟» والذي يخفي بدوره التساؤل «عمَّن نحن؟». هذا الاستجواب يعكس فوضى العالم في اللحظة التي تلت انهيار جدار برلين والنهاية التاريخية للنظرية اللازمنية، كلية الحضور حول «العالم المقسّم إلى كتل» وهي النظرية التي تفتقد إلى متكأ علمي يمكن تصديقه. مع زوال الاتحاد السوفياتي، انهار أيضاً نظام مفهومي دبلوماسي بأكمله: نظرية الكتل، نظرية توازن الرعب، انشطار الكوكب إلى معسكر الخير ومعسكر الشر. والحال، فإننا نشهد وعلى الرغم من تغير اللاعبين، ديمومة «الديكور» المفاهيمي لـ «الحرب المستمرة». أفلاتندرج في هذا النمط من التعقل، دعوتك المخلصة إلى «اعادة تدبّر المفاهيم» و «اعادة ابتداء الطرائق الفضلى في العلاقات الدولية؟

هوبير فيدرين: توازن الرعب لم يكن نظرية، بل هو كان واقعاً، وادى إلى أن يضمن السلام بين القوى الكبرى. «نظرية الكتل» لم تكن نظرية، وإنما هي إحدى التحولات العديدة لتوازن القوى.

إن محاولة الانقسام وفق معادلة: خير - شر هي معادلة مختلفة، وأقل ثباتاً في التاريخ. انها شاملة عند الإسلاميين، وقوية في هذه اللحظة في الولايات المتحدة. لكن علينا ألا نتوهّم: فالتاريخ يستمر.

مدارات غربية: برغم غياب الكتل المتجانسة المقامة الواحدة في مواجهة الأخرى، ثمة تصنيف كيسينجري (نسبة إلى كيسينجر، وزير الخارجية الأميركي السابق) للأمم المتحدة لا تقره سيد فيدرين. يوجد قوى ذات نفوذ دولي مثل الولايات المتحدة وفرنسا أو روسيا، وقوى متوسطة أو اقليمية، ودول صغيرة محرومة من القوة والنفوذ وأخيراً، شبه دول غير قادرة فعلياً على ممارسة سيادتها الشكلية. أمام هذه الترسيمة البين - دولية المعقدة والمتنافرة، سؤالك يطرح نفسه مجدداً: ما العمل في وجه هذه القوة الفائقة، في وجه «أحاديتها»، مع العلم، كما شددت في كتابك الأخير أن «النظام الأحادي الراهن للأمم المتحدة لا يشكل بوضعه هذا وزناً مقابلاً»<sup>(1)</sup>؟

هوبير فيدرين: التحليلات التاريخية لكيسينجر تبقى من دون نظير. لكن «ما العمل»؟ جوابي هو نفسه: خلق موازين قوى أخرى، لأن الولايات المتحدة أصبحت قوة فائقة من دون أن تريد ذلك فعلياً، ان ذلك حصل بسبب عجز الآخرين.

مدارات غربية: اثباتك لحالة غياب الوزن المقابل العالمي والغزو الانجلو -

1- Hubert Védrine, face à L'hyperpuissance, Paris, éd. Fayard.

ساكسوني، هل يؤذن بموت الأمم المتحدة؟ إذا كان الجواب بالإيجاب، فإلى أين نحن ذاهبون؟ وإذا كان بالنفي، كيف يمكن للأمم المتحدة أن تستعيد صدقيتها وفعاليتها؟

هوبير فيدرين: لم تتأسس الأمم المتحدة لكي تكون سداً في وجه الاتحاد السوفياتي، لا ينبغي أن نخلطها مع حلف الأطلسي. سيكون في الأمر معنى مغلوط تماماً. وحتى لو أن ادارة بوش سخرت من الأمم المتحدة (كلينتون لم يفعل ذلك)، فإن على الدول المتمسكة بتعددية الأقطاب الدفاع عن الأمم المتحدة، والحري بنا لو تم صوغ برنامج اصلاح للأمم المتحدة فستنتهي الولايات المتحدة نفسها إلى أخذه في الحسبان.

مدارات غربية: العولمة المتسارعة والواسعة تفاقم من حال الريبة بإزاء مفهوم «الحق في الاختلاف». إذ يعكس الاختلاف إما خطاب «الضعيف» وإما تبشير المحب للإنسانية (الذي يحب الخير). في المقابل أصبحت «الاستثنائية» امتيازاً ذا قيمة ومحاطة بهالة أخلاقية، لكونها مؤسسة حصراً على القوة العسكرية. والقدرة على التدمير تحدد الحق في امتياز الاستثناء. وبعيداً من هذه القوة والتي هي حَكْمٌ وطرف في آن معاً، فإن كل أخلاقية لا تتأتى من هذه القدرة على التدمير مشكوك في أمرها، بل هي غير ذات دلالة أو أن مصيرها الاختفاء. بهذا المعنى، عندما تستند «الإمبريالية العظوفة»، كي نستعير عبارات روبرت كاغان، وتتماسك وتبقي على القوة كعامل محدد للشرعية العلائقية، ألا تدخل البشرية في الترسيم الكاوسية (السديمية) التي تسلطت على فكر هوبز وقلقه من «حرب الجميع ضد الجميع»؟

هوبير فيدرين: حتى لا تؤدي العولمة إلى عالم هوبز، يجب على كل أولئك الذين يريدون قواعد: دولاً وحركات وأفراداً أن يجتمعوا. وهذا يمر بإصلاحات تطاول الأمم المتحدة، ومنظمة التجارة العالمية، والبنك الدولي، وتأسيس منظمة عالمية للبيئة ومجلس عالمي للتنظيم الاقتصادي.

#### مدرسة «فيدرينية»؟!

- مدارات غربية: عندما تكون القوة في أصل الأخلاقية، وعندما يتوحد الجنود والمبشرون في حرب من دون نهاية، أين تصبح الدبلوماسية المأمولة؟ وما هي اخلاقيات التفاعل في ما بين الدول في مواجهة دبلوماسية «القبضة» وتالياً في

## سيرة شخصية

### هوبير فيدرين

(Hubert Védrine)

احتل منصباً رفيعاً في وزارة الخارجية الفرنسية منذ 1979. شارك في الحملة الانتخابية لفرنسوا ميتران لعام 1974 في برج مونبارناس (Montpar-nasse)، أما في سنة 1978 فقد انتخب كبديل لنائب رئيس بلدية نيفير (Nevers) آنذاك دانييل بينوا (Daniel Benois). في تلك الحقبة كان على صلة قربة فكرية من الشخصية الفرنسية اللامعة جاك ديلاور وكذلك من فرنسوا ميتران في الوقت نفسه. في أيار (مايو) 1981 أصبح فيدرين مستشاراً دبلوماسياً للرئيس الاشتراكي ميتران في قصر الاليزيه، وفي عام 1988 عين الناطق الرسمي باسم رئاسة الجمهورية الفرنسية، ثم السكرتير العام للقصر الرئاسي وهذا منذ عام 1991. هذا المنصب بقي في يده إلى لحظة مغادرة فرنسوا ميتران للرئاسة في أيار - مايو 1995. وبين سنة 1994 وسنة 1995 مرض رئيس الجمهورية فصارت السلطة عملياً في يد ثلاثة من المقربين من ميتران: آن لوفيرجون (Anne Louver-geon) ميشال شاراس (Michel Charasse) وطبعاً هوبير فيدرين.

في سنة 1996 ألف فيدرين كتابه المهم «عالم فرنسوا ميتران» والمكرس

ظل غياب «دبلوماسية أخلاقية» في ذاتها؟ ما هي برأيك، الخطوط الأخلاقية لدبلوماسية جديدة بهذا الإسم؟ وفي هذا السياق، هل أنت مثلنا، أي متشائم في خصوص العلاقات بين الأمم؟

- هوبير فيدرين: أنا حذر قليلاً من استلهاام الأخلاقيات في الدبلوماسية، لأنها غالباً ما تُخفي شيئاً آخر، وأهل الغرب الحالي جاوزوا الحد في ذلك. بل أن أخلاقاً دبلوماسية ما يجب أن تقاس بنتائجها وبنفس القدر بنواياها (انظر، النقاش التقليدي حول الردع النووي). باختصار، بدون أن نقيم أوهاماً حول الروابط الانسانية والعلاقات بين الأمم، يجب علينا العمل من دون توان لتحسينها.

مدارات غربية: ما خلا الخطاب المثالي حول بعض الموضوعات (الصدقة الفرنسية - الأميركية، السياسة العربية لفرنسا...)، ألا تعتقد أن غياب أوروبا وضعف وزن فرنسا في هذه الفوضى العالمية يربّبان آثاراً مشؤومة على المجريات الدرامية للأحداث في أمة قد سلبت وجرى اخضاعها؟ كيف يمكن لأوروبا الخروج من دورها الضعيف كمقدّم للمال ومخمد للأزمات، لمصلحة دور سياسي أكثر أهمية، دور مركزي في التوازن الدولي كما تأمل في ذلك شعوب عدة من أوروبا الموحدة هذه؟

هوبير فيدرين: أنا مقتنع مثلك بأن العالم سيكون أكثر توازناً، وأقل وحشية وأقل ظلماً مع أوروبا أكثر قوة. لكن لبلوغ ذلك، على الأوروبيين أن يتفقوا في ما بينهم، وحالهم اليوم ليس كذلك، لجهة العمل على مشروع معقول لأوروبا قوية، وعلى طبيعة شراكتها المستقبلية مع الولايات المتحدة الأميركية.

مدارات غربية: كنت ولفترة طويلة (خلال أكثر من عقدين) في قلب مؤسسات القرار المهتمة بالشؤون الدولية في الجمهورية الفرنسية. هل أمكننا القول أنك وبسبب من مسارك الاستثنائي والفكري والسياسي كرجل دولة، استطعت أن ترسم خطأً فلسفياً مخصوصاً في الدبلوماسية الفرنسية المعاصرة؟ بمعنى آخر، هل يمكن الكلام عن «فيدرينية» دبلوماسية في المدرسة الغربية المعاصرة؟

هوبير فيدرين: قد لا أكون في الموقع المناسب لقول ذلك. تتأتى مفاهيمي، بالدرجة الأولى، من سنواتي الأربع عشرة من العمل مع رجل ورئيس دولة استثنائي، هو فرنسوا ميتران، وكذلك بسبب من ذائقتي للتاريخ. هذا ما منحني، شيئاً من الوضوح، وقليلاً من الأوهام بالمعنى السيء للكلمة، إذ ليس هناك خلاص من الأوهام، وكذلك امتلاكي حس التعقيد. وتالياً، إلى كوني مؤيداً

لأوروبا بشكل كبير فأنا فرنسي، ولا اعتقد بالزوال المحتم للدول - الأمم. وأخيراً، فأنا لست «غريباً» نمطياً. فمعايشتي الحميمة للمغرب منذ طفولتي، ورحلاتي الكثيرة في العالم، منحتاني نظرة مزدوجة. أنا مدرك جيداً أن الرؤية الغربية - وحتى الأوروبية - لا تزال تتضمن حتى اليوم (نزعة) أبوية ونيو-كولونيالية. لقد حاولت تصحيحها، وجعلها مفتوحة على الآخرين. إنذاً، أنا واقعي، وفاعل ومتعدد الثقافات.

**مدارات غربية: أخيراً، سيد فيدرين، ما هي رسالتك إلى المثقفين العرب وخصوصاً إلى العراقيين الذين يكابدون منذ سنة الاحتلال الأميركي ولا يرون من حولهم غير العذابات والنذل؟**

- **هوبير فيدرين:** رسالتي موجهة أولاً: إلى العراقيين وأقول لهم: مهما فعل الأميركيون، انظروا إلى أبعد من الوضع الآني. أمسكوا مصيركم بيديكم، بإثباتكم أن الأكثرية الشيعية قادرة على احترام حقوق الأقليات، وأن السنة يوافقون على عدم الاحتفاظ بحصرية السلطة، وأن الأكراد يكتفون بحكم ذاتي. استخدموا المؤسسات الانتقالية كي تثبتوا أن خلافاتكم يمكن لها أن تحل سياسياً.

وثانياً: إلى المثقفين العرب: أقول باحترام وصدقة: كّفوا عن الظن والقول بأن إسرائيل والأميركيين هم مصدر كل مشاكلكم. إعملوا بأنفسكم على تفكر الحداثة على كل الصعد، والدمقرطة في العالم العربي، وعلى الخروج من هذه المعضلة: الحفاظ السلطوي على الوضع الراهن وعلى الركود أو النكوص الإسلامي. وأقول أيضاً: الديمقراطية لا يمكن لأحد أن يفرضها عليكم من الخارج، والغربيون الذي سيحاولون فعل ذلك سيفشلون.

يمكن لسياسة أوروبية ذكية أن تساعدكم، بيد أن مسؤوليتكم الأولى جسيمة.

للسياسة الخارجية المتبعة من قبل الثنائي ميثران فيدرين منذ 1981 إلى 1995. عندما ترك الاليزيه مع الرئيس الاشتراكي عام 1995 استدعي لأخذ موقع في مجلس الدولة (Conseil d'Etat).

في عام 1997، سنة التساكن بين اليمين واليسار، اتفق جاك شيراك المحافظ وليونيل جوسبان اليساري على اسم فيدرين لاحتلال منصب وزير خارجية فرنسا، حيث استمر طوال مدة التساكن هذه - خمس سنوات في التعاون الدائم مع الرئيس شيراك ومع خصمه العقائدي رئيس الوزراء ليونيل جوسبان.

في سنة 2003، رجل الدولة هذا أنشأ في باريس مؤسسة تعنى بالاستشارات الاستراتيجية والدولية اسمها: «هوبير فيدرين للاستشارة» (Hubert Védrine Conseil).